

اشكالية العدوانية في علم النفس

مقدمة لدراسة ظاهرة العنف

د. رالف رزق الله

١ - المسألة:

منذ اندلاع الحرب في لبنان، أصبح العنف يشكل ظاهرة يومية يكاد اللبنانيون والعرب والعالم ان يتعودوا عليها وان يتكيفوا على العيش معها، فيُخصص لها « الشريط الأمني » في النشرات الاخبارية الرسمية وغير الرسمية كما يخصص لها، من ناحية أخرى، الصفحة أو حتى الصفحات في الصحف اليومية. ومن البديهي القول، وعلى الرغم من غياب أي دراسة احصائية، ان أصحاب السلوك العدواني ينتمون الى فئة عمرية محددة هي فئة الشباب.

ازاء هذا الواقع الذي اندمج في الحياة اليومية والروتينية للبنانيين، تناست الكتابات والأدبيات اللبنانية العنف كظاهرة تستحق الدراسة فعلاً وتفترض حقاً طرح التساؤلات حول ماهيتها واسبابها، لتهم فقط بالغاية التي تكتسب غالباً طبيعة سياسية: فالتحليل الصحفية والكتبية تنسى - أو تناسى - العنف، كما تنسى - أو تناسى - الكائنات البشرية صاحبة اعمال العنف، لتهم فقط بالغايات والأهداف والنتائج السياسية، وهي في نهجها هذا، لا ترى في اعمال العنف الا مجرد وسيلة تبررها ضمناً لتدفع الغاية السياسية، والغاية السياسية فقط.

في هذا الموقف ثمة اعتراف ضمني - قد لا يكون واعياً - بأن العنف ظاهرة عادية، وقديمة، وأزلية، وبأن سير كل المجتمعات الانسانية المنظمة يتأرجح، كما يقول غاستون بوتول* في مقدمته لكتاب « الانسان

* - (Gaston Bouthoul) عالم اجتماع فرنسي، صاحب مشروع نظرية في علم الاجتماع العنفي (الحرب، العدوانية... الخ). وله خصوصاً نظرية عن الاسباب الاجتماعية للحرب - راجع كتابه: Le phénomène - guerre, ed P.B. P, Paris (الفكر العربي).

الغاضب»، بين عالمين: «العالم الأول هو عالم العمل والادخار، وتحريم العنف والقتل. أما العالم الثاني، فهو عالم القتل المنظم والمرتب، وعالم شعائر الهدم»^(١).

هذا الموقف التفسيري من الحرب اللبنانية يفتقد، في رأينا، الى التبرير النظري. ذلك ان الحرب اللبنانية، ككل حرب، ظاهرة تتسم بقدر كبير من التعقيد ولا يمكن بالتالي اختزالها الى العامل السياسي وفهمها على ضوءه فقط.

«الحرب، كما يقول بوتول، تتضمن مظاهر عديدة. كما ان هناك عدة عوامل تساهم في تكوينها وفي عملية نضجها. وهذا هو حال كل الظواهر الاجتماعية المهمة. لذلك، نقوم بعملية تبسيط اعتباطية حين لا نأخذ بعين الاعتبار الا مظهراً واحداً من مظاهرها»^(٢).

ويتابع الكاتب نفسه، فيقول:

«ومن بين كل عوامل العنف، تحتل العدوانية مركزاً مميزاً لأنها موجودة دائماً. نجدها في اصل كل الصراعات حين لا تكون الا مجرد استعداد نفسي غير واضح. وحين تتوضح وتتوكد، تولّد فينا ظواهر عراكية تدفعنا الى الرغبة في الهجاءة او على الأقل، الى تقبل امكانية وقوعها»^(٣).

ولقد تجاهلت الكتابات التي تناولت الحرب اللبنانية ميلاً لدى المقاتل هو الميل العدواني. هذا الميل، وبغض النظر عن أصوله وطبيعة تكوينه، موجود. ولقد اهتمت به، منذ القدم، الديانات السماوية، وحاولت ان تنظمه وحشت على الاهتمام به. الا ان موقف شتى الديانات السماوية تجاه هذه الظاهرة لم يكن هو نفسه تماماً. إذ ان بعض الكتب قد دعا المؤمنين الى كبح الميل العدواني والتسامح فيه، وحتى الاستسلام له حين دعا الفرد مثلاً لأن «يدير خده الأيسر لمن يضربه على خده الأيمن». بينما رأى البعض الآخر فيه طبيعة جامحة شديدة يصعب قمعها: «ومن اعتدى عليكم، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» (الآية).

سنحاول في هذه الدراسة التمهيدية ان ندرس هذا الميل بالذات، كما سنسمى الى توضيح ملامح اشكالية العدوانية في مجال علم النفس بغية الوصول الى تحديد بعض النقاط التي من شأنها ان تشكل منطلقاً لفرضيات تتناول العنف في لبنان من منظور نفسي وبغض النظر عن الأبعاد السياسية.

ان التماساً (Approche) كهذا يبرز في دراسة الدكتور مصطفى حجازي حول «سيكولوجية الانسان المقهور» حيث يلاحظ الكاتب انه «اذا كانت العدوانية ظاهرة عامة في كل المجتمعات، فانها تجد في المجتمعات المتخلفة تعبيرها الأوضح والأكثر انتشاراً والأشد عنفاً»^(٤).

ويحاول الكاتب ان يرسم خصوصيات مظاهر العنف في المجتمع المتخلف، فيقول:

«... تأخذ عدوانية الانسان المتخلف مظهراً فاتراً أو نشطاً وذلك تبعاً للظروف التاريخية للمجتمع من ناحية وحالة كل فرد في لحظة ما من ناحية ثانية. في الحالة الأولى، تفعل العدوانية فعلها بشكل خفي مقنّع بمظهر من السكون والسكينة والاستكانة الخادعة. أما في الحالة الثانية، فهي تنفجر جريمة مذهلة في شدتها

وفي اجتياحها لكل القيود والحدود، ومفاجئة حتى لأكثر الناس توقعاً لها^(٥).

ويستشهد الدكتور حجازي بالعبارات اللغوية المستعملة بشكل عفوي في حياتنا اليومية، ويلجأ الى تعريضها للكشف عن دلالاتها اللاواعية التي لا تثير الاطمئنان أو التفاؤل بأي شكل من الأشكال. فعبارة «خناقة» على سبيل المثال، «مثيرة في دلالتها الرمزية فكأن الصراع لا يمكن ان يكون اقل من عملية «خنى» متبادلة»^(٦).

ان أي دراسة نفسانية للعنف في لبنان لا بد ان تأخذ بعين الاعتبار خصوصية المرحلة التي نمر بها والتي - أي المرحلة - تتصف بغياب الدولة اللبنانية وانهارها. ذلك ان الوظيفة الأساسية للدولة، كما يقول بوتول، «تكن في منع أو تحديد العنف بالنسبة الى الأفراد واحتكار استعمالها لها فقط. فالصلاحيات العليا للسيادة تكن في ادارة وتوجيه العدوانية الجماعية. ومحك سيادة الدولة في القانون الدولي هو سلطة شن العنف المنظم متى تريد وضد من تريد»^(٧).

والصعوبة النظرية الأساسية التي تصطدم بها كل دراسة تتناول العدوانية هي غموض المفهوم. حتى ان دنيز فان كانينغيم Denise Van Caneghem ترى في كتابها حول «العدوانية والقتالية» ان عبارة «عدوانية» هي «مفهوم فارغ لم يكتسب دلالة الا بطريقة تدريجية»^(٨) فهي رأيا ان عبارة «عدوانية» Aggressivité تستعمل للإشارة الى انماط مختلفة ومتنوعة من السلوك. فالعدوانية، كما تقول الكاتبة «يمكن ان تكون جذية أو لعبية، موجهة نحو الذات، أو الآخرين، أو الأشياء، أو المؤسسات... كما يمكن ان تتسامى Se sublimer. في تضحية الذات كما يحدث عند الأبطال، أو توظف في عمل مفيد اجتماعياً»^(٩).

ويتبنى النفساني الفرنسي موريس روكلان Maurice Reuchlin الموقف نفسه. وهو يرى، على سبيل المثال، ان فقرة «العدوانية» في روائز الشخصية Tests de personnalité لا تشير الى سمة نفسية محددة، وانها تفتقد بالتالي الى القيمة التنذرية، التوقعية Valeur prédictive اذ هي عاجزة تماماً عن القول كيف ستتوجه العدوانية؛ هل تخضع لعملية التسامي أم تكون منحرفة؟ هل تكون واقعية أو رمزية^(١٠).

ان عدم وضوح هذا المفهوم يرتبط، في رأينا، بتعدد النظريات النفسية التي تناولت عن قريب أو بعيد ظاهرة العدوانية. وسنرى ذلك بشكل موسّع خلال عرضنا لهذه النظريات. ولا بد من الإشارة في هذا المجال الى ان عبارة «السلوك العدواني» أو «العنف»، في بحثنا هذا، تشير الى العدوانية الموجهة نحو الآخر، وعلى وجه الخصوص، نحو جسد الآخر.

٢ - العدوانية في نظريات علم النفس

أ - الأبحاث النفس - فيزيولوجية

في مجال مسألة العدوانية، يمكن القول ان الأبحاث النفس - فيزيولوجية، كالدراسات النفس - اجتماعية -

ولو بدا الأمر غريباً للوهلة الأولى - انطلقت من الاهتمام عينه: « العلم - اخلاقي » Moral والذي يتلخص بالسؤال القديم التالي: هل الانسان طيّب بطبيعته؟ أم انه شرير بطبيعته ايضاً؟

فإذا كان هناك قاعدة بيولوجية أو عصبية للمدوانية، فهذا يعني ان المدوانية ظاهرة حتمية وضرورية وان العلاج الوحيد الممكن هو تجنب الأذى الذي يمكن ان تلحقه بإيجاد القنوات المناسبة والملائمة اجتماعياً. فأنطونيني يرى، على سبيل المثال، انه: « في عالم الأحياء، تبرز المدوانية مع ظهور الخلايا الأولى. اذ ان حاجتها - أي حاجة الخلايا - إلى الطعام والتبادل قد دفعتها بالضرورة الى البلعمة Phagocytose، والى ابتلاع مواد وعناصر حية اخرى والى الهدم المتبادل »^(١١).

كان كانون Cannon اول من حاول اكتشاف الأساس والمؤشرات الفيزيولوجية للانفعالات والتي، في رأيه، تشكل فئة واسعة تضم - فيما تضم - المدوانية. لذلك، يرى اوتو كلاينبرغ Otto Klineberg في كتابه « علم النفس الاجتماعي » انه « لم يتم اكتشاف أية قاعدة بيولوجية للمدوانية كظاهرة مستقلة. فكانون قد برهن فقط على انه تحدث، خلال الغضب، سلسلة من التغيرات الأحياء - كيميائية Biochimiques والفيزيولوجية الناتجة عن فعل الجهاز العصبي العاطف Système nerveux sympathique والغدد الكظرية Glandes surrenales »^(١٢)

يضيف كلاينبرغ فيقول: « هذه التغيرات ليست خاصة بالمدوانية انما تحدث ايضاً في الخوف والاهتياج. فهي تشكل القاعدة للسلوك العاطفي العنيف بشكل عام ولا تشكل قاعدة للمدوانية كظاهرة مستقلة »^(١٣).

ولقد ادت أبحاث كانون الى اكتشاف أهمية التحت - سريري Hypothalamus في الانفعالات، مبيناً أن كل انواع الانفعالات تحتفي حين يتم استئصال هذه المنطقة الدماغية. كما أجرى ماسرمان Masserman عدة أبحاث تجريبية حيث توصل بواسطة الاثارة الكهربائية للتحت سريري إلى إحداث كل الظواهر الجسمية والخارجية الخاصة بالغضب لدى الهز. ولكن « الحيوان تابع تناول طعامه بهدوء »^(١٤).

لقد أصبح من المعلوم في وقتنا الحاضر ان مختلف الاستجابات الانفعالية كالغضب والخوف والاثارة الجنسية.. الخ تؤدي الى استجابات خاصة على المستوى العصبي أو على مستوى الغدد الصم Glandes endocrines ويمكن القول ان هناك ارضية مشتركة لكل الانفعالات كما تظهر في الوقت نفسه اختلافات خاصة ومحددة.

وفي هذا المجال بالذات لا بد من ذكر أعمال عالم النفس الفيزيولوجي الأميركي آكس AX. فلقد قام هذا العالم بأبحاث دقيقة تهدف الى تحديد المظاهر الفيزيولوجية لانفعاليين اساسيين هما الغضب والخوف. ولقد توصل الى ان يبين ان المظاهر الفيزيولوجية الخاصة بالخوف، تتحدد بفعل الكُظُرَيْن Adrenaline. أما في حالات الغضب، فالهورمون الرئيس هو النورادرينالين Noradrénaline^(١٥).

نلاحظ هكذا ان الأبحاث النفس - فيزيولوجية لم تتوصل بعد الى نتيجة حاسمة لأن الدراسة الفيزيولوجية للعدوانية لم تتناولها الا ضمن فئة أوسع وأشمل هي الانفعالات.

وحقاً لو افترضنا ان هناك قاعدة بيولوجية وعصبية للعدوانية، فانه تظل تبرز عدة تساؤلات يلخصها أنطوني ستور في كتابه حول « العدوان البشري » حيث يقول:

« ... وقد أوضحت مناقشتنا الفسيولوجية ان الآلية الجسمية للعدوان وللانفعالات والسلوك العدواني هي في الواقع تركيب غريزي بمعنى انه امكانية فطرية آلية يمكن ان تنطلق بسهولة. ولكن هل من الضروري سحب الزناد؟ ان ما لم يتقرر بعد هو ما اذا كان هناك حاجة داخلية ملحة الى استخدام هذه الآلية، او بعبارة اخرى، هل يتم التعبير عن السلوك العدواني دون ان يقع أي تهديد على الكائن؟ قد يبدو هذا السؤال سؤالاً أكاديمياً، ما دام لا بد لكل حيوان، بما في ذلك الانسان، من ان يواجه خبرة التهديد أثناء حياته. ويجب تبعاً لذلك، ان يستجيب للعدوان من حين لآخر. ومع ذلك، اذا كان علينا ان نتحكم في العدوان، فانه من المهم ان نحدد ما اذا كان هناك - في الحيوانات او في الانسان - تراكم داخلي من التوتر العدواني يحتاج الى التفرغ من وقت لآخر، أو بعبارة اخرى، نحدد ما اذا كانت الاستجابة العدوانية هي ببساطة قوة كامنة ليس من الضروري ان تخرج الى حيز الاستخدام على الاطلاق. فاذا كان الافتراض الأول صحيحاً، فإن ما نحتاج اليه لكي نسيطر على العدوان هو تهيئة مخارج مناسبة للعدوان؛ واذا كان الافتراض الثاني صحيحاً، فإن ما نحتاج اليه هو تجنب جميع المثيرات التي قد تثير الاستجابة العدوانية »^(١٦).

ب - فرضيات علم نفس الحيوان:

انطلقت أعمال الاختصاصيين في علم نفس الحيوان من اهتمامات مشابهة لتلك التي ميزت ابحاث علماء النفس الفيزيولوجيين. فهنا ايضاً السؤال الضمني المطروح هو التالي: هل العدوانية فطرية؟ فملاحظة السلوك العدواني على المستوى الحيواني تشكل حجة قوية لصالح الفرضية القائلة بفطرية العدوانية حتى لدى الكائن البشري، وذلك استناداً الى النظرية التطورية Théorie évolutionniste القائلة بأن الفروقات بين الحيوان والانسان ذات طبيعة كمية وغير نوعية، وهي نظرية يتبناها اكثرية العاملين في مجال علم نفس الحيوان.

ويبقى كونراد لورنز من ابرز الذين درسوا السلوك العدواني لدى الحيوان - ولقد خصّص لهذا الموضوع مؤلفاً غنياً بالملاحظات الشيقة والفرضيات الجديدة^(١٧).

ينتقد لورنز الاعتقاد الشائع والقائل بأن العلاقات بين الحيوانات ذات طبيعة عدوانية ودموية. فالسلوك العدواني السائد في الطبيعة هو، بحسب لورنز، سلوك عدواني ضمنوعي Intra-spécifique اكثر منه سلوكاً عدوانياً بينوعياً Inter-spécifique. فالتهديد الحقيقي للحيوان يأتي من قبل جماعة من جنسه تريد الشيء نفسه غذاءً لها وليس من قبل مخلوقات غريبة ذات احتياجات مختلفة. كما ان السلوك العدواني لدى

الفقریات Vertebrés يظهر في الأمور - المترابطة - التالية:

- الدفاع عن العشّ والمجال الحيوي، ومنطقة الصيد والطريدة. ولقد تبين في هذا المجال ان السلوك العدواني يزداد حدة كلما كان الحيوان قريباً من منطقته أو بمجاله الحيوي.

- الطعام.

- الموقع التراتبي Position Hiérarchique.

- التزاوج.

ج - الفرضيات التحليلية:

- فرويد (Sigmund Freud)

لا بد، بادیء ذي بدء، من التمييز بين مرحلتين من تكوّن النظرية التحليلية « الفرويدية ». المرحلة الأولى تمتد من عام ١٨٩٥، تاريخ نشر « دراسات عن الهستيريا »، حتى عام ١٩٢٠، تاريخ نشر « ما وراء مبدأ اللذة »، وهو المقال الذي شكل ولادة ما عرف فيما بعد بـ « النظرية الفرائزية الثانية » أو حتى « النظرية التحليلية الثانية ».

في المرحلة الاولى، لم يُبدِ فرويد الا عناية ضئيلة بالعدوان. حتى ان عبارة « عدوانية » أو « سادية » لم ترد مرة واحدة في فهرس كتابه « تفسير الأحلام » الذي نشر في عام ١٩٠٠. الا انه اعتبر العدوانية جزءاً لا يتجزأ من الغريزة الجنسية في كتابه « ثلاث مقالات في النظرية الجنسية » الذي نشر في عام ١٩٠٥.

ففي هذا الكتاب نقرأ ما يلي:

« تتضمن الجنسية لدى معظم الذكور البشرية جزءاً من العدوانية، أي ميلاً الى اخضاع الموضوع الجنسي. وقد يفسّر هذا الميل بالنسبة الى العلوم البيولوجية بحاجة التغلب على مقاومة الموضوع الجنسي بوسائل اخرى غير الاغراء. وقد لا تكون السادية سوى النمو المفرط للبعد العدواني في التزوة الجنسية، حيث تصبح العدوانية مستقلة وتحتل الدور الرئيس »^(١٨).

وهكذا نرى انه، في « النظرية التحليلية الأولى »، لم تشكل العدوانية موضوعاً مركزياً بالنسبة الى فرويد، كما ان مؤسس التحليل النفسي لم ينظر اليها كظاهرة مستقلة عن الجنسية. فاهتمام فرويد بالعدوانية لم يبرز قبل عام ١٩٢٠. وقد يكون هذا التاريخ مؤشراً ذا دلالة اذ انه يصادف - تقريباً - نهاية الحرب العالمية الأولى.

إن المفهوم الأساسي الجديد الذي ادخله فرويد في « نظريته الثانية » هو « غريزة الموت » Instinct de mort-Thanatos. وعملية ادخال هذه الغريزة الجديدة التي ادت الى نظرية ثانية للفرائز لم تكن، في رأينا،

جديدة، بكل ما في الكلمة من معنى. اذ ان مفهوم « غريزة الموت » قد اشتق من مبدأ اللذة. ولقد توصل فرويد الى مفهوم « غريزة الموت » نتيجة « تأمل عميق » في مبدأ اللذة. وهناك علاقة نظرية وثيقة بين هذا المفهوم وفهم فرويد للذة. اذ ان مؤسس التحليل النفسي يرى ان كل سلوك، أو بالأحرى كل نشاط نفسي، يهدف الى اللذة والى تجنب الألم أو اللالذة. واللذة، في نظرية مؤسس التحليل النفسي هي حالة من اللاتوتر أو اللاتارة. والسؤال الذي يطرحه فرويد قبل الوصول الى مفهوم « غريزة الموت » هو التالي: اذا كان كل النشاط النفسي يهدف الى اللذة، واذا كانت اللذة هي حالة من اللاتوتر، فما هي الحالة النموذجية من اللاتوتر أو اللاتارة؟ والجواب الذي يعطيه فرويد هو ان الموت هو الذي يوفر هذه الحالة النموذجية من اللاتوتر أو اللاتارة. وبالتالي، فالنشاط النفسي، من أساسه، يهدف الى اقامة هذه الحالة المثالية من اللاتوتر. وقاعدة هذا النشاط النفسي هي « غريزة الموت » وهي تسمى الى اعادة الكائن الحي الى الحالة اللاعضوية *Etat inorganique*.

وقد أدّى هذا المفهوم الجديد الى تعديل فرويد لنظريته الثنائية حول الغرائز. ففي المرحلة الأولى، كان يميّز بين ميول الأنا *Tendances du moi* والميلول الجنسية *Tendances sexuelles*. أما النظرية الثانية للغرائز. فتركز على التمييز بين غرائز الموت *Instincts de mort* وغرائز الحياة *Instincts de vie-Eros*. وهدف غرائز الحياة تكوين وحدات جديدة. أما هدف غرائز الموت، فهو تفكيك الوحدات وتحليلها، والرجوع الى الحالة اللاعضوية والموت.

ويرى فرويد ان هذه الغرائز تتمظهر على الصعيد البيولوجي في عمليتي الخلية الحية. فالبناء الايضي، *Anabolisme* - بحسب فرويد - هو القاعدة المادية والبيولوجية لغريزة الحياة، وهو الذي يركب وحدات جديدة من المواد العضوية. أما الهدم الايضي *Catabolisme*، فهو يشكل القاعدة المادية والبيولوجية لغريزة الموت اذ يتم، في هذه العملية، هدم المواد العضوية، وتفكيكها.

ونلاحظ هنا ان غريزة الموت، هي، في الأساس، ذات طبيعة هدم ذاتية *Autodestructive*. الا انه من الممكن ان توجه الى الخارج، فتننتج الميلول العدوانية. كما انها قد تمتزج بالليبيدو وتوجه نحو الخارج، فتمطي السلوك السادي أو ترتد نحو الذات، فتؤدي الى السلوك المازوشي^(١٩).

فيلهلم رايش *Wilhelm Reich*

يشكل موضوع العدوانية نقطة خلاف أساسية بين فرويد ورايش. فالعدوانية في رأي هذا الأخير ليست نتيجة لتوجيه « غريزة الموت » الى الخارج. وهو يعتبر أن فرضية « غريزة الموت » مجرد اسطورة، والسلوك العدوانى الموجه نحو الآخرين ناتج عن الركود الجنسي *Stase Sexuelle* وعن عدم الإشباع الجنسي التناسلي. وهو يميز في هذا المجال بين العدوانية الطبيعية والتلقائية والتي تكون دائماً في خدمة المحافظة على

الذات والجنس - والتي تساهم أيضاً في تأمين الاشباع الحويوية - من جهة، والعدوانية الناتجة عن الكبح بشكل عام والكبح الجنسي Inhibition Sexuelle بشكل خاص. والعدوانية الطبيعية في نظر رايش مجرد وسيلة لخدمة حاجات الفرد ولتأمين استمرارية الجنس. وهي لا تسعى إلى الهدم ولا إلى ايذاء الآخر إلا حين يبلغ عدم الإشباع الجنسي حداً معيناً. في هذه الحالة يتم التفريغ عن التوتر المتراكم - نتيجة عدم الاشباع الجنسي - في السلوك العدواني الذي يصبح مصدراً للذة.

وهنا يستشهد رايش باستجابات المتعضي Organisme التي اطلق عليها بافلوف اسم « منعكس الحرية ». فلقد بين العالم الروسي انه في حال منع حيوان ما من القيام بحركاته الطبيعية، تظهر لديه استجابات عدوانية. وإذا كبنا ايضاً هذه الاستجابات، تبرز لديه عوارض الشلل والتفكك النفسي.

اذن، ليس السلوك العدواني ذا طبيعة فطرية. بل هو اكتساب حديث، او ايضاً، كما يقول رايش « نزوة ثانوية » Pulsion secondaire. ان أي نوع من النشاط المدمر والذي يسمى الى التدمير باعتباره هدفاً بحد ذاته، هو استجابة المتعضي لرفض اشباع حاجة حيوية، وبشكل خاص لعدم امكانية اشباع الحاجة الجنسية. ولا يكون الركود الجنسي مسؤولاً فقط عن القلق والعصاب، بل ايضاً عن كل الاشكال الممكنة للنشاطات التدميرية ومنها الحرب، والفاشية والسيطرة الطبقية.

موني - كيرل Money-Kyrle

يميز موني - كيرل بين ثلاث نظريات للحرب: نظرية جنسية، ونظرية اوديبية، ونظرية عظامية

Paranoïaque

النظرية الجنسية للحرب. ترتكز بشكل اساسي على الرمزية الجنسية التي تظهر بشكل خاص في الاحلام وحيث تكون الادوات الهجومية كالسيف، والخنجر والمسدس... الخ. رموزاً قضيبية وحيث تكون الارض من الرموز الانثوية او حتى من رموز الأمومة. واستناداً الى هذا المنطق تظهر الحرب لموني - كيرل عبارة عن صراع قضبي Lutte phallique تؤمن السيطرة الجنسية للذكر لا متلاك الانثى - الارض، والانثى - الام. والانثى - الوطن.

اما النظرية الاوديبية للحرب، فهي ترتكز ايضاً على المفاهيم التحليلية الاساسية. فالطفل يعيش في تجاذب Ambivalence عميق تجاه ابيه الذي يشكل في آن معاً، موضوع حب وكراهية، وموضوع اعجاب وحسد. ولكي يتجنب ثقل العدوانية (ومشاعر الذنب المرتبطة بها)، يتخذ الطفل تجاه ابيه موقفاً مستسلماً انشوياً ينفي كل شعور ذكري عدواني ومن خلال أوالية تسمى mécanisme d'identification مختلف أعضاء الجماعة فيما بينهم، يتولد نوع من العلاقة الجنسية اللاواعية. ويتم توجيه العنصر الذكري العدواني الذي سحب من الأب (والقائد استناداً الى المعادلة التحليلية التي ترى في القائد والزعيم رمزاً من الرموز الأبوية نحو العدو.

ترتبط النظرية العظامية بأبحاث ميلاني كلاين Melanie Klein التي تعتبر ان الطفل في مراحل نموه الاولى يرى في أمه صورتين: صورة الام الجيدة Bonne mère . وصورة الام الشريرة Mauvaise mère . وهاتان الصورتان ستنفصلان بعضهما عن بعض في مرحلة لاحقة وتسقط الصورة الاولى (الام الجيدة) على الوطن، والصورة الثانية (الام الشريرة) على العدو. فالعدو هنا يمثل الجوانب الشريرة من الذات التي استقطت على الخارج^(٢٠).

غيزا روهام Géza Rohelm

في كتابه حول شعائر التدريب Rites d'initiation يحاول ثيودور رايك Théodore Reik أن يبين ان هذه الشعائر ترمز إلى الخشاء Castration ، وإلى وضع حد للعلاقة مع الأم وإلى الموت والقيامة. وهذه الشعائر تهدف إلى ادخال المراهق في الجماعة.

وينطلق غيزا روهام من هذه الفرضية ليحاول ان يبين ان الجماعة تحل رمزيا مكان الأم. ولدى الشعوب المقاتلة او المحاربة تكون شعائر التدريب اكثر قساوة. ويرى روهام انه من الممكن اقامة علاقة طردية بين العدوانية وتماسك الجماعة، والطبع المقاتل، وقساوة العقابات، وعلاقة الامومة مع الجماعة، ورمزية البتر Mutilation بهدف الانتماء الى الجماعة.

هناك اذن نوع من المناقضة Paradoxe : فكلما ازداد شعور الفرد بانتمائه الى الجماعة، ازداد شعوره بالبتر. وكلما ازدادت عدوانية الفرد، ازدادت حاجته الى الانتماء الى الجماعة (وبالتالي الى البتر). ثم ان عملية البتر الرمزية تؤدي الى احباطات Frustrations وبالتالي الى العدوانية التي بدورها، تولد التماسك والحاجة الى التماسك وتوجه العدوانية الى الخارج^(٢١).

د - فرضية جون دولارد John Dollard

ينفي دولارد في فرضيته، فكرة العدوانية الفطرية. فالعدوانية، في رأيه، تنتج دائما عن الاحباط Frustration كما يرى ان العلاقة بين الاحباط والعدوانية تخضع لقوانين اساسية ابرزها ما يلي:

- ١ - ان كل توتر عدواني ينتج عن احباط.
- ٢ - ان حدة Intensité العدوانية ترتبط طرديا بحدة الحاجة التي لاقت الاحباط وبحدة الاحباط، اي باهمية الحاجز الذي يقف بين الرغبة واشباعها.
- ٣ - تزداد العدوانية مع ازدياد عناصر الاحباط.
- ٤ - ان صد العدوانية يزيد من حدتها بينما يؤدي تفريجها الى التقليل من اهميتها.
- ٥ - ان صد الافعال العدوانية يشكل احباطا جديدا تنتج عنه عدوانية موجهة ضد العنصر الذي يعتبر مسؤولا عن عملية الصد هذه.
- ٦ - ان العدوانية الموجهة ضد الذات تتضمن بالضرورة عقابا ذاتيا Autopunition ، وعليها بالتالي ان

تتجاوز درجة معينة من الصد. لذلك يعتبر دولارد ان العدوانية الموجهة نحو الذات نادرة للغاية الا في الحالات التي تصد فيها الاشكال الاخرى للعدوانية^(٢٢).

هـ - فرضية رينه جيرار. René Girard.

يرى رينه جيرار في كتابه حول « العنف والمقدس » ان العدوانية، كالجنسية تماماً، تتصف بالمرونة وبقدرتها على استبدال الموضوعات. ويستفيد « المقدس » Le sacré من هذه الصفة الاساسية ليوجه العدوانية نحو « ضحايا » Victimes لا تنتمي الى الجماعة الدينية.

ان الوظيفة الاساسية « للمقدس »، بحسب جيرار، لا تكمن في كبح العنف « فالمقدس والعنف غير منفصلين »^(٢٣). كل ما في الامر ان المقدس يكبح العنف داخل الجماعة الدينية، للمحافظة على تماسكها، بتوجيهه الى « اكباش محرقة » خارج الجماعة.

٣ - بعض الفرضيات النفسية للعدوانية لدراسة ظاهرة العنف لدى الشباب في لبنان

هذا العرض الموجز للنظريات النفسية للعدوانية يسمح لنا بالتمييز بين فئتين من الفرضيات:

- الفئة الاولى تؤكد على فطرية العدوانية وترد السلوك العدواني الى عوامل داخلية وبيولوجية.

- اما الفئة الثانية، فتدّعي العدوانية الى عوامل خارجية او بالحري الى تفاعل الكائن البشري مع محيطه. هذه الفئة من الفرضيات ترفض الاعتراف « بفريزة قتالية »، ولا تعترف الا « بمجموعة من الشروط الحياتية على الفرد ان يتكيف معها »^(٢٤).

الفئة الاولى تحل المشكلة - وهما - منذ لحظة بروزها. اما الفئة الثانية، فتنتقل من الوضع الوجودي ومن « الانسان في وضعية ».

ان المسألة الاساسية في رأينا لا تكمن في الرد على السؤال: هل العدوانية فطرية ام لا؟ فالعدوانية فطرية كانت ام مكتسبة هي ميل ينخرط في البنية النفسية لكائن بشري « متموضع Situé في ثقافة اجتماعية ». والاشكال المتعددة التي تتخذها العدوانية لا تتحدد بماهيتها، بل بالحلول والقنوات الممكنة التي تؤمنها الثقافة الاجتماعية.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، نحاول هنا ان نقترح فرضيات اولية تتناول ظاهرة العنف لدى الشباب اللبنانيين من وجهة نظر نفسية:

- دراسة السلوك العدواني لدى الشباب اللبنانيين في ضوء الاحباطات الحيوية التي يعانون منها وفي غياب المؤسسات التي تسمح بتفريغ العدوانية في شكلها المتسامي والمقبول اجتماعياً.

- دراسة السلوك العدواني في علاقته مع تماسك الطائفة.
- الطائفة حاملة دائما لخطاب Discours مقدس. دراسة الاواليات التي يلجأ اليها هذا الخطاب لازالة مشاعر الذنب المرتبطة بالسلوك العدواني وطريقة تحديدها للضحية.
- اخيرا، إن هذه الفرضيات لا تستبعد العامل السياسي بل تسعى لإلقاء بعض الاضواء على جانب تجاهلته - حتى الآن - الكتابات التي تناولت ظاهرة العنف في لبنان.

- حواشي -

- ١ - ANTONINI (Fausto): *L'homme furieux – L'agressivité Collective*. (traduction française de Elsa Bonan, Paris, Hachette, 1970, P, 7).
- ٢ - المصدر السابق، ص ٨.
- ٣ - المصدر السابق، ص ٨.
- ٤ - حجازي (مصطفى): *التخلف الاجتماعي - مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور*. بيروت، معهد الانماء العربي، ١٩٧٦، ص ٢٥٤.
- ٥ - المصدر السابق، ص ٢٥٦.
- ٦ - المصدر السابق، ص ٢٧١.
- ٧ - *L'homme furieux. op. cit. P. 9*
- ٨ - VAN CANEGHEN (Denise): *Agressivité et Combativité*. (Paris, Presses Universitaires de France, Collection «Le Psychologue». 1978, P, 221).
- ٩ - المصدر السابق، ص ٢٣.
- ١٠ - المصدر السابق، ص ٢٣.
- ١١ - *L'homme furieux, op. cit P. 15*
- ١٢ - KLINEBERG (otto): *Psychologie social*. (traduction française de R.A vigdor – Coryell, Paris, Presses Universitaires de France, 1963, Tome I PP 99 – 100
- ١٣ - المصدر السابق، ص ١٠٠.
- ١٤ - *L'homme furieux, op. cit, P. 50*
- ١٥ - المصدر السابق، ص ٥٩ - ٥٢.
- ١٦ - ستور (انطوني) *العدوان البشري* (نقله الى العربية محمد احمد غالي والهامي عبدالظاهر عفيفي، الاسكندرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥، ص ٣١ - ٣٢).
- ١٧ - LORENZ Konrad: *L'agression-une histoire naturelle du mal*. (traduction française de vihma Fritsch, Paris, Flammarion P. 285).
- ١٨ - FREUD (Sigmund): *Trois essais sur la théorie de la sexualité*. (tra. Fran. de B. Reverchon-Jouve, Paris, Gallimard, Collection « Idées» 1962, PP, 43-44).
- ١٩ - FREUD(sigmund): *Au-delà du principe du plaisir In: Essais de Psychanalyse*. (trad. franc. de S. Jankélévitch, Paris, Petite Bibliothèque Payot, 1968, PP 7-81).
- ٢٠ - *L'homme furieux, op. cit. PP 181-182.*

- ٢١ - المصدر السابق، ص ١٨٢ - ١٨٣ .
- ٢٢ - **Dollard (John), Miller (Neal. E) DOOB (Leonard. W) MOWRER (O. H), SEARS (Robert):** Frustration And Agression. (New Haven, Yale University Press, Elgth Printing, 1950).
- ٢٣ - **GIRARD (René):** La Violence et le sacré. (Paris, Grasset, 1972). P. 17.
- ٢٤ - Psychologie sociale, op. cit. P. 107.